

الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي

يمينة تابتي

أرمي من خلال هذا البحث الموسوم "الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي" إلى الكشف عن الجانب الإقناعي في النص الصوفي، من خلال رصد نحل ابن عباد الرندي في تحقيق عملية التأثير في الآخر، باعتبار أنّ الحجاج وسيلة المتكلم في جعل المتلقي يتقبل آراءه واتجاهاته وانتقاداته وتوجيهاته، وعليه يمكن حصر أهدافي في أربع نقاط أساسية هي:

- 1 - التعريف بالحجاج كظاهرة تواصلية.
 - 2- الكشف عن طريقة المحاجة والإقناع عند المتصوفة.
 - 3- معرفة مدى انسجام هذا النوع من الخطابات مع أحدث التقنيات في التحليل.
 - 4- إثراء المكتبة بنوع جديد من الدراسات التي تزوج الماضي بالحاضر.
- وقد اقتضى المنهج المعتمد أن يتقاسم متن البحث العناصر الأساسية المكونة للخطاب الحجاجي، فكانت البداية بـ "التواصل الحجاجي في الرسائل" بحيث يتم فيه إبراز الصفة التواصلية للحجاج، وذلك برصد النموذج التواصلية الحجاجي، والمسار التواصلية بدراسة المخطط التواصلية في كل رسالة. وأخيراً الجهاز الشكلي للتخاطب، الذي رصدت من خلاله السياق والمقاصد بالنظر إلى المرسل والمرسل إليه في علاقتهما بالخطاب.

2- البلاغة التخاطبية للرسائل: وتم فيها رصد الآليات التي يمكن أن تسهم بشكل مباشر في إحداث العملية الحجاجية، وتناولت فيه " العناصر البلاغية" بالتركيز على أهم عناصر البلاغة التي تساعد في حدوث عملية التأثير وبالتالي الإقناع كالتأطير، الاستعارة، التشبيه، التمثيل، التماثل... الخ.

و"التداولية التخاطبية ودورها الحجاجي" التي أبرزت من خلالها الدور الحجاجي لأفعال الكلام في النص الصوفي وذلك بالتركيز على فعل إنتاج الرسالة اللغوية من خلال الفعل التأثيري وإظهار السلوك الصوفي بواسطة ربط الأصوات بالدلالة التي تتجلى في الفعل الإنشائي أو الإنجازي.

3- التنظيم الحجاجي في نصوص الرسائل: بحيث تناولت فيه: مبحثين هما: البنى الحجاجية، والروابط الحجاجية ودورها التأويلي.

تتناول البلاغة الغربية كيفية الإقناع في اللغة وتعني طريقة المحاجبة، وفي هذا فرصة لأنصار البلاغة القديمة لإظهار أفكارهم، فظهرت البلاغة الجديدة (The New Rhetoric)، كما ظهر الاهتمام بالدلالة في اللسانيات إذ اهتم ديسوسور بثنائية الدال والمدلول ودورها في إنشاء الدلالة، ولكن النقطة التي توقف عندها البنيويون هي التي توقف عندها الفلاسفة (ماذا يقصد، كيف يفهم...)، وناقش البلاغيون بعض القضايا التي توصل إليها الفلاسفة وألفوا كتباً تتعلق بالبلاغة الجديدة خاصة قضية الحجاج، كموضوع معاصر وأساسي - إحياء البلاغة القديمة بإعطائها ثوبا جديدا يناسب العصر - وكل التيارات الفلسفية والبنيوية التي تتناول المقاصد، تجد نفسها تدرس البلاغة، خاصة الحجاج. فالإقناع مثلا يتطلب اختيار اللغة ومراعاة المخاطب

والسياق... الخ. وحتى اللسانيات النصية التي حاولت دراسة النصوص، توصلت إلى أن الحجاج كذلك نص مميز.

يعد الحجاج إذا حلقة ضرورية تمر عبرها كل العلوم، وقد يكون التوجه الحجاجي فلسفيا نصيا أو توجهها لفظيا بحسب زوايا تناول كالتركيز على المتكلم مثلا بكونه زاوية للتفاعل.

يمكن دراسة الحجاج، من خلال علاقة المتكلم بالمتلقي في إطار الحال التي تفرض على (أ) أن يحدث (ب) باستعمال آليات الإرسال، كما تفرض على (ب) أن يفهم بطريقة معينة ما يقوله (أ)... الخ، وبالمفهوم القديم، تسند الحال إلى بلاغة معينة (كلام معين تصرف ما)، ومن هذه الزاوية يراعى الإطار الحالي للمتكلمين.

أما الزاوية الثانية فتتمثل في رؤية الحجاج على أساس أنه بنية نصية، وهنا يكون التركيز على الجوانب اللغوية فقط، وذلك بالحديث عن الأدوات اللغوية التي تلعب في النص دورا حجاجيا، وهي (المفردات، الأفعال، الظروف، الأسماء.... الخ).

ولقد درس الغربيون هذا الجانب من خلال التركيز على الروابط الحجاجية (Si, lorsque, puisque, mais, car) ومن خلالها يمكن أن ندرس أي نص قد لا نجد فيه خصوصيات حجاجية، مثل أن نطلب من شخص ما أن يسرد لنا حادثة ما - وذلك بدراسة البنية التي قد تكتشف في النهاية أنها بنية حجاجية بكونه تشاكل وتداخل للمقاصد والتي وظف لأجلها: الاستعارة، التشبيه، الآيات، الحكايات.... الخ، قصد التأثير في المتلقي.

نلاحظ أن المتصوفة رغم انتقائهم وعنايتهم باختيار الألفاظ لا يجدون في اللغة ما يكفي للتعبير عن التجارب التي يمرون بها، لأنها في نظرهم تحوي سرا لا يمكنهم

وصفه. ولقد كتب المتصوفة في أهم الأشكال التعبيرية كالشعر، والنثر الفني، والرسائل ونلاحظ أن الرسائل الصغرى للمتصوف الإسلامي ابن عباد الرندي¹، هي أميل إلى جنس الخطبة منها إلى الرسالة.

تقديم المدونة:

للشيخ ابن عباد الرندي مجموعان من الرسائل دعي الواحد منهما بـ "الرسائل الكبرى" والآخر "الرسائل الصغرى" لاختلافهما في الحجم ولقد اقتصرنا على الرسائل الصغرى في دراستنا للحجاج.

تحتوي الرسائل الصغرى على ستة عشرة رسالة، الستة الأولى وجهها ابن عباد إلى صديق له يدعى محمد بن أدبية، والتسع الأخرى كتبت إلى المحدث الرحالة يحيى السراج (803 أو 805هـ/1400م أو 1402 م) أحد تلاميذ ابن عباد المعروفين أما الرسالة الأخيرة فقد أرسلها ابن عباد إلى الشيخ "الشهير شرقا وغربا" أبي إسحاق إبراهيم الشاطبي (790هـ / 1388) وكان هذا قد استشاره من غرناطة بخصوص حوار وقع بين صوفية تلك المدينة حول "مسألة سلوك طريق الصوفية هل يصح بدون شيخ أو تكفي فيه قراءة كتب القوم".

أما تاريخ هذه الرسائل فلا نعلمه بالتحديد، ولكن المحقق في المخطوطات "بولس نوياليسوعى"² يرى أنها كتبت من سلا قبل سنة (770هـ / 1368م).

ارتأيت أن أختار العينة التحليلية بمراعاة وضعية المرسل إليه، ففي الرسائل الستة عشرة هناك ثلاثة أنواع من المخاطبين يختلفون باختلاف مراتبهم الشخصية والعلمية، ومنه فإن العلاقة التخاطبية بينهم وبين المخاطب تختلف، إذ نلاحظ أن ابن عباد لم يعرف بأحد من مخاطبيه إلا في الرسالة الأخيرة التي بعث بها إلى الشاطبي، إذ يقول:

"إلى أخي إبراهيم الشاطبي" وكذلك نوعية الحجج التي استعان بها في رسائله تختلف من مخاطب لآخر، وهذا ما سنعرفه في الفصل الأول خصوصاً. لهذا رأينا أنه من الأفضل أن نختار للتحليل رسالة لكل مخاطب لاسيما وأن للشاطبي رسالة واحدة فقط. ومنه فإن الرسائل الستة عشرة تشكل أرضية خصبة لمعرفة مدى فاعلية الحجج في الخطاب الصوفي، وهل تزيد فاعلية حجج الخطاب الصوفي عن أي خطاب آخر (غير الخطاب الصوفي)؟ وهل صحيح أن الغاية من الخطاب الحجاجي هي التأثير في المتلقي فقط، ومن ثم يتعين علينا معرفة هذا المرسل إليه وبناء ترسانات حجاجية تبعاً لما نعرفه عن مزاجه؟ وهل يتوقف اختيار الحجج على معرفة ذهنية المرسل إليه حقاً؟

تستدعي الرسالة بصورة عامة مرسلًا ومرسل إليه، ويقتضي الحجاج بالمقابل تفاعل الذوات، إذ أن أقدم أثر للحجاج يمكن تحديده تاريخياً، هو حجاج يقوم على مواجهة الخصم بكلامه أو بأفعاله كحجة عليه، ولا زال الحجاج يحتفظ بهذه الدلالة الأصلية المحملة بمدلول هجومي أو دفاعي إلى اليوم³، وعليه فإن الحجاج يستدعي بالضرورة مرسلًا ومرسلًا إليه، ومن هذا المنظور أردت البحث عن نموذج تواصل للحجاج ورصد عناصر مساره، بالتركيز على هذين القطبين الهامين في إحداث العملية التواصلية الحجاجية ومعرفة دورها في تحريك الرسائل وتفعيلها.

1 - التواصل الحجاجي في الرسائل:

1-1 النموذج التواصل الحجاجي:

وضعت العديد من وضعيات الاتصال "بهدف الحصول على شخص متلقي، وعلى جمهور يتبنى هذا السلوك، أو يقتسم ذاك الرأي، فنحن نصادف هذا الوضع في حياتنا اليومية وعلى المستوى العلمي مثلما هو الحال في الإطار العام للتفاوض.⁴

وعملية الاتصال هذه تستلزم في النهاية مخاطباً يسعى المخاطب إلى التأثير فيه ومحاولة إقناعه بكل الوسائل، إذ يعتبر الإقناع "واحداً من الصيغ المهمة للاتصال، يكون القصد فيها التعبير عن إحساس أو حالة أو نظرة فردية على العالم أو على الذات".⁵ وهنا يأتي دور الحجاج الذي يهدف إلى الإقناع بمختلف الأساليب. كما تظهر الصفة التواصلية للحجاج، إذ "لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان"⁶.

إن العملية الاتصالية تتم بواسطة الإخبار والتعبير، أما الإقناع فيتم بواسطة المخاتلة والحجج، بالتالي لا يتم الاتصال إلا بالإقناع ولا يتم الإقناع إلا بالاتصال، وهاتان العمليتان المتكاملتان (عملية الإقناع) و(عملية الاتصال) لا تتجان في النهاية إلا عملية واحدة، وهي العملية التواصلية.

ولما كان كل حجاج تواصلاً فإننا نحصل على ثلاثة نماذج تواصلية للحجة: وهي النموذج الوصلي والنموذج الإيصالي والنموذج الإتصالي للحجة. على حد تصنيف طه عبد الرحمان.

2- المسار التواصلية:

نستنتج المسار التواصلية في الرسائل انطلاقاً من مخطط التواصل الناقل للخبر، وبالنظر إلى عمليات التواصل المختلفة من مثل الإخبار والإبلاغ والبلاغ والقصد. دون إغفال أهم عناصر العملية التواصلية وهما المرسل والمرسل إليه اللذان يتواصلان وفق قناة، ومرجع، وتقنين.

يتم مسار التواصل في الرسائل، بمراعاة وظيفة التواصل التي يرمي إليها المتخاطبين، ومعرفة ما إذا كانت تهدف إلى الإخبار أو التعليم أو الإقناع.

يقدم لنا ابن عباد الخبر على شكل رسالة تصب في إر سياق صوفي بحث، إذ يظهر المرسل في كل مرة بمظهر المريد الباحث عن قضية صوفية تشغل ل متصف، يطرحها وفق مرجع يجمعه بابن عباد، بمن أراد أن يسلك سلوكهم، حسب قوانين تسهل عملية التواصل، وبالتاي حدوث عملية التأثير والإقتناع. ويتمثل مرجع الرسائل في عبارات وصطلحات صوفية من مثل: مقامات اليقين، حبس النفس، قوي يقينه وضعفت صفات نفسه... الخ. أما التقنين فيمكن أن نلخصه في قول أحد المشائخ الصوفيين: **الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيه غيرهم**⁷ وبالتالي فهناك قوانين خاصة بين هؤلاء المتصوفة، يلجؤون إليها لترجمة مقاصدهم. مما يؤدي إلى حدوث الدلالة عندما يترجمون جزء من تجربتهم الحسية بما يتلقونه من أصحابهم. يكاد يكون مسار التواصل نفسه في كل الرسائل لولا تغير المواضيع والمخاطبين، وذلك راجع للانسجام القائم بينها سواء من حيث الدلالة أو من حيث المحتوى. إذ نستنتج الانسجام الدلالي من خلال التشابه المرجعي ومن خلال المقصد والبنى المقدرة. أما انسجام المحتوى فهو في تناسق موضوعات الرسائل - إذ تصب كلها في إطار صوفي - وفي الموضوعات داخل الرسائل وتمهيد بعضها البعض، حتى لا يحدث في الكلام انقطاع واهتزاز للمعنى. ويضمن هذا الانسجام في البناء، انسجام عناصر المسار التواصل للرسائل، إذ أن في كل رسالة مرسل ومرسل إليه. وقناة وتقنين وفق سياق مقامي يظهر فيه الخطاب. وأن كل الرسائل تشترك في نفس الوظائف التي هي الإقناع والإخبار والتعليم.

3-1 الجهاز الشكلي للخطاب:

يتحدد حضور المتخاطبين في الخطاب وفق سياق تتحكم فيه عناصر أهمها المكان والزمان الذي يجمعهم أو من حيث الضمائر أو من خلال التوجه: (القيم والآراء والموضوع المشترك)، وهذا كله في إطار عرض الجانب الشكلي الكلي لصفة الخطاب، الذي يُظهر جانبا حجاجيا يدرس عادة في إطار عملية الحديث والمسار الحجاجي⁸. يلخص بنفينست (Benveniste) الجهاز الصوري للتلفظ⁹ في الصياغة الآتية: (أنا- هنا - الآن) [Je- Ici- maintenant] باعتباره الجهاز المؤسس لعلاقات التخاطب، هذه العلاقات التي تربط المخاطب بالمخاطبين والمتخاطبين بالخطاب.

أ- علاقة المخاطب بالمخاطبين:

يتعين على كل تحليل خطابي أن يبدأ بتحديد الوضع النصي الداخلي لمختلف فاعلي اللفظ، من بينها وضع المتكلم اللغوي ووضع المخاطب اللغوي:

أ- 1 وضع المتكلم اللغوي: يمكننا أن نستنتج درجات وأشكال حضور ابن عباد في الرسائل الثلاث كما يلي: -حضور واضح، وتدخله مباشر بواسطة إحدى صيغ الدال التي هي "أنا".

- حضور غير مباشر من خلال العبارات العاطفية، التفسيرية، التقويمية التوجيهية والقيمية.

- حضور يظهر أخيرا من خلال مجمل الاختيارات الأسلوبية وتنظيم المادة الشفهية، إذ إن صورة المتكلم المتغيرة إلى حد ما مع النصوص، تتدرج دوما في الملفوظة، سواء بشكل جلي أو خفي، بحيث نلاحظ أن صورة ابن عباد أثناء حديثه مع تلميذه غير صورته في الحديث مع شيخه وغيرها في الحديث إلى صديقه، إذ يتغير الأسلوب بتغير المخاطب، وهذا ما يتجلى لنا من خلال أنواع الحجج.

ويبدو من خلال الرسائل، أن ابن عباد يملك سلطة معينة تجعله يسيطر على الخطاب، وذلك بجعل مخاطبيه يؤمنون برأيه في المسائل التي يطرحونها عليه، ويدفعهم إلى القول: "أصدق ما يقول لأنه هو من يقول".¹⁰ وهذه هي الغاية القصوى التي تروم إليها الحجج السلطوية.

وتتمثل سلطة ابن عباد في امتلاكه للمعرفة التي فرضت على كل من محمد بن أديبه ويحي السراج والشاطبي، اللجوء إليه في المسائل التي استعصت عليهم. ولقد استحوذ ابن عباد على السلطة أيضا من خلال تخويله المخاطبين إياها، بما يتفق مع ما تقتضيه قاعدة التخيير، كما تسميها (لاخوف) فعندما يخير المرسل المرسل إليه في شيء ما، فقد منحه السلطة، حتى وإن كانت تؤول في بداية التفاعل الخطابي إلى المرسل. ويتم ذلك في طلب الرأي والمشورة¹¹.

كما تظهر سلطته أيضا من خلال الكلمات التي يوظفها في عبارات عاطفية وتفسيرية وتقويمية وتوجيهية وقيمية، تعبر عن مزاجه وردود أفعاله في القضايا المعروضة عليه.

أ-2 وضع المخاطب اللغوي:

يُكثر ابن عباد الرندي من الاستشهادات التي يمكن أن نطلق عليها اسم **التناص الظاهر**¹ كالنعنة، النقل، التضمن، الشرح، الحكايات والتعليق، وهي حجج توحى بوجود نوع من الاختلاف المنشئ للحوار على الرغم من أن علاقة سؤال جواب توحى بالاحترام والثقة. كما أن هذه الاستشهادات هي عبارة عن معرفة مشتركة بين المتخاطبين. ومن هذه المعرفة المشتركة ما أورده ابن عباد نقلا عن القرآن الكريم، الحديث النبوي والأشعار وأقوال أئمة الصوفية:

- قال الله تعالى: " إنما يخشى الله من عباده العلماء." ¹³

- يقول الرسول صلى عليه وسلم: " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه

فإنه يراك." ¹⁴

تعد هذه الآليات ضوابط حاجية تفرض عليه الالتزام بها خاصة، أنه يسعى إلى تحقيق غرض تعليمي وإقناعي وأخلاقي، إذ يكمن الغرض التعليمي في إخبار المتلقي بواقع المسألة دون استدعاء العواطف ويتولى هذا الجانب عملية الإخبار، أما الإقناع فيتمثل في جعل مواضيع رسائله ممكنة بالرجوع إلى العقل. وأما الغرض الأخلاقي فيكمن في الوظيفة التعليمية، وهي تعليم المرسل إليه أخلاق الصوفية.

نلاحظ أن كل مخاطب يعتمد إلى إشراك ابن عباد في مسألته وذلك من خلال

عملية السؤال، ما يدخل علاقتهم به في إطار حجج المشاركة (les arguments du communauté) التي تعتمد على المواضع (les lieux) والقيم (valeurs) والآراء المشتركة (opinion commune)، إذ أن أحسن طريقة للتأثير الحاجي في المرسل إليه، هو جعله يشارك في اكتشاف الحقيقة التي نود إقناعه بها.

يظهر أما منا في بداية كل رسالة سؤال يطرحه المرید على من يرى أنه تتوفر فيه المعرفة، وهذا الذي تتوفر فيه المعرفة يحيله بدوره على من يراه أنه يمتلك هذه المعرفة، فيبقى الوسيط بين هذا وذاك. وينتمي هذا النوع من الحاجاج إلى الحجة السلطوية الباحثة عن الحقيقة، إذ يرى بيرلمان وتيتيكاه أن هذا النوع يدخل ضمن إطار إجرائي تعد فيه الفرضية إما موجبة وإما سلبية. ¹⁵ خاصة عندما تكون هذه الحقيقة مرتبطة بالدين الذي هو إحدى السلطات اللاشخصية. ¹⁶

يملك محمد بن أديبة معرفة علمية تظهر بسؤال الناس له عن مسائل استعصت عليهم، كما يملك هذه المعرفة يحي السراج الذي هو تلميذ ابن عباد والتلميذ طالب للعلم، ومن ثمة فهو مالك لمعرفة معيّنة، ونفس الشيء بالنسبة لـ "الشيخ الشاطبي"، فهو معروف شرقا وغربا بمعرفته الصوفية. وبمجرد أن تكون هذه المسائل في الأصل لأناس توجهوا بها إلى هؤلاء، يعني أنهم يمتلكون الكفاءة العلمية التي تؤهلهم للإجابة عن تساؤلاتهم.

كما تظهر سلطة المخاطبين من خلال استحضار ابن عباد لصورة كل واحد منهم، خاصة عند الدعاء في بداية الرسالة وفي آخرها، بحيث شكّل هذا الدعاء دليل على أن المرسل إليه لا يفارق مخيلة المرسل، وبهذا نعتبر أن عدم مفارقتة له سمة من سمات السلطة. "وهذا مطلب تداولي قبل إنتاج الخطاب وفي أثرائه، ليحافظ المرسل على ما تستحقه عناصر السياق من خطاب بالموازاة مع تحقيق الهدف والتعبير عن القصد"¹⁷ إذ من هذا المنطلق يمكن أن نرصد رتبة كل مخاطب، وذلك من حيث الإستراتيجية المتوخاة في الخطاب " ففي فعل الطلب مثلا، قد يستعمل المرسل ذو الرتبة العليا الإستراتيجية المباشرة، في حين يستعمل المرسل ذو الدرجة الدنيا الإستراتيجية التلميحية"¹⁸.

ب- علاقة المتخاطبين بالخطاب:

يرتبط الحديث عن علاقة المتخاطبين بالخطاب، بأحد أهم عناصر العملية الاتصالية وهو السياق، إذ أنّ أي عملية اتصالية تبقى ناقصة إذا لم تتم في حدود سياق معين، سياق نرصده من خلال الواصل¹⁹ باعتباره أحد التحليلات العميقة لانسجام الخطاب واتساقه والذي يربط المتخاطبين بالخطاب.

يشمل الواصلات (Embrayeurs) كل ما لا يتحدد بوجوده ضمن سياق ما، وهي مجموع وحدات لسانية تتعلق قيمتها المرجعية بالمحيط الفضائي والزمني حسب ورودها، وعليه "أنا" واصل لأن مرجعه معرف بالفرد الذي في كل حضور له وفي كل حدث تلفظي نجده يقول "أنا"²⁰

وكذلك من خلال ما يشترك فيه المتخاطبين، كالآراء، القيم والمواضع²¹.

تحدد العناصر المبهمة في الرسائل الثلاثة وفق السياق الخاص بكل رسالة، وحسب كل مخاطب، وسندرسها ضمن إطار **الإشارات**²². إذ فيما يخص الضمائر، نجد حضوراً مكثفاً لضمير المتكلم "أنا" في كل الرسائل ويستغني عن ضمير (نحن).

كما يمكننا أن نرصد علاقة المتخاطبين بالخطاب من خلال حجج المشاركة التي تعتمد على مبدأ المشاركة القائم على **الافتراضات المسبقة**، المشتركة بين المرسل والمرسل إليه وهي واسعة الاستعمال في حالات الفعل والتفكير المشتركين بينهما²³.

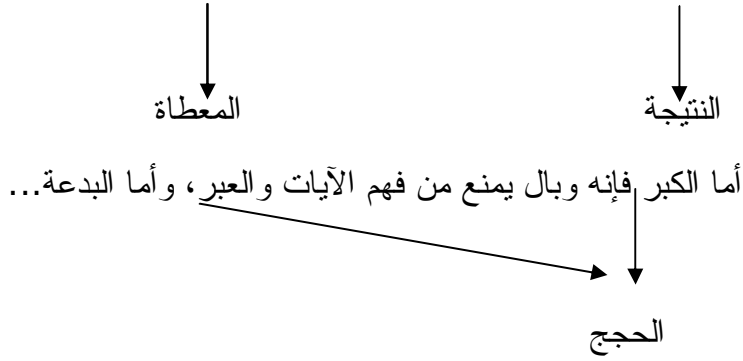
كما تظهر علاقة المتخاطبين بالخطاب من خلال **الحجج التقويمية**، حيث يتعاطى ابن عباد لتقويم دليله " بإقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه، مراعيًا فيه كل مستلزماته التخاطبية من قيود تواصلية وحدود تعاملية، حتى كأنه عين المستدل له في الاعتراض على نفسه"²⁴ وهذا الحوار الضمني الذي أنشأه ابن عباد بينه وبين نفسه غرضه درء الشك المتوقع من الشاطبي باستباق اعتراضاته ودحضها بالحجج الظاهرة من قبيل الآيات القرآنية.

كما يعتمد ابن عباد إلى **فعل الإيصاء** في إقناع مراسليه، بحيث نجد الوصية في كل الرسائل، إذ ترد أحياناً بصفة غير مباشرة وأحياناً أخرى بصفة مباشرة، وتدخل الوصية ضمن القيم المشتركة وتكون في أغلب الأحيان من الإنسان إلى نده، أو إلى

من هو أدنى منه، ونجد الوصية بلفظها الصريح في الرسالة التي بعث بها ابن عباد إلى صديقه ابن أديبة، فيقول: "وأوصيكم بوصية..."²⁵

تتضمن هذه النصائح والوصايا نتيجة لمقدمة معطاة، يمكن تمثيلها بالشكل الآتي:

لا تأخذوا في هذا العلم / مع من هو منتصف بإحدى ثلاث صفات: كبر أو بدعة أو تقليد



نستنتج أن ابن عباد، يربط المعطيات بالنتيجة وذلك بصفة ظاهرة أو ضمنية، ظاهرة من خلال الأدوات مثل (أن)، (فإن).

ونخلص إلى أن التواصل الحجاجي في نصوص الرسائل قائم في عنصرين أساسيين هما:

1- السياق: بحيث يجمع ابن عباد ومحمد بن أديبة ويحي السراج والشاطبي،

سياق تواصلية موحد وهو السياق الصوفي الذي يتدخل بصفة مباشرة في تدعيم الرأي، ومن ثمة حدوث التفاعل وبالتالي الإقناع.

2- الحوار: والذي يظهر من خلاله النموذج التواصلية الحجاجي، حيث يقوم

هذا النموذج على الحوار الضمني بين المتخاطبين المتجلي في علاقة السؤال والجواب.

وعليه فإن الخطاب الصوفي عموماً قائم على العلاقة بين المرسل والمرسل إليه،

إذ يكون التركيز فيه على مستوى لا يتعدى حدود التأثير في الآخر، خاصة وأن الخطاب

الصوفي خطاب حجاجي في ذاته، ذلك أن المخاطب لا يسرد حادثة أو حكاية أو قول إلا وقصد من خلالها تحقيق غاية، وتتمثل هذه الغاية في جعل المتلقي يؤمن بما يقول وبما يفعل بغية إتباعه والسير على مذهبه.

2- البلاغة التخاطبية للرسائل:

2-1- العناصر البلاغية:

أ- التأطير: إن أي دراسة لا تحدد إلا بوجودها ضمن إطار يحدد غايتها، فلكل ظاهرة إطار عام يميزها ويفرقها عن غيرها من الظواهر، ولقد تحدث أمبرطو إيكو عن مفهوم الأطر عندما استوعب مدى إجرائيتها وفعاليتها في ضبط التأويل، بحيث يقول: "الأطر لا تسمح لنا فقط بتأسيس مدار الحديث وإنما تحدد مساره وغاياته ووجهة النظر التي يتبناها"²⁶.

يؤطر ابن عباد الرندي الظواهر الموجودة في رسائله بتحديداتها والتعريف بها. إذ "يقوم التعريف"²⁷ على تقبل "الاختتام" وهو غالبا ما يشكل جوابا على سؤال"²⁸ إذ نجد ابن عباد يعرف بموضوع رسالته ومحتواها بتقديمه للجواب عن المسألة، فيقول: "أما بعد فقد وصلني منكم كتاب وأنتم تطلبون فيه بيان المسألة الواقعة في كتاب أبي طالب البيان الشافي. والكلام فيها على حسب ما طلبتموه عظيم الخطر كثير الضرر لتضمنه كشف أسرار مصونة ونشر علوم مكنونة..."²⁹

وعلى نفس هذه الوتيرة تسيّر باقي الرسائل، إذ في كل مرة يبتدئ فيها الجواب تكون هذه البداية بمثابة تعريف بالظاهرة.

والتعريف الحجاجي في الرسائل لا يكمن فقط في تحديد ابن عباد للظاهرة والإحاطة بها، وإنما حتى في طريقة تقديم الأجوبة إذ يعتبر تقديم الأفعال بطريقة نبرز

من خلالها بعض المظاهر ونخفي البعض الآخر، من أشكال التأطير الجبار (cadrage puissant)³⁰. كتقديم الصوفية على أنهم أولياء الله وأنهم المختصون لوحدهم بعناية الله سبحانه وتعالى من دون باقي عباد، إذ يقول ابن عباد على لسان إبراهيم بن أدهم: "طفت ذات ليلة بالبيت وكانت ليلة مظلمة ذات مطر ورعد فخلا الطواف فلما انتهيت إلى الباب قلت اللهم أعصمني حتى لا أعصيك أبدا. فقال: فسمعت قائلا يقول من جوف البيت: يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي يسألني العصمة فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر"³¹. ونفهم من هذا القول أن إبراهيم بن أدهم سأل الله سبحانه وتعالى والله أجابه وعليه فإن الله كلمه، ونحن نعلم أن الله تعالى لم يكلم من عباده مباشرة إلا آدم وموسى ومحمد عليهم السلام، ومن ثمة فإن إبراهيم بن أدهم ينزل بنفسه منزلة المقربين من الله والمحبين إليه.

ويستعين ابن عباد بالوصف وبالمقارنة في تقديم الظاهرة، ويستعمل ابن عباد هذا النوع من الحجج عندما يقارن بين الظاهرة وما يقابلها في الواقع، إذ حديثه عن المسألة الواقعة في كتاب أبي طالب البيان الشافي، استدعى مقارنتها بمسألة قريبة منها كقوله: "وقد تبعه الغزالي على مذهبه وأفرغها في قالبه"³²، إذ ينشئ ابن عباد حججه انطلاقا من المقارنة بين الظواهر الموجودة في كتاب البيان الشافي وظواهر مدعمة لها وهي ظواهر قريبة من سياق المحيط الذي قيلت فيه أول مرة.

كما نستنتج الحجة التعيينية في معظم الرسائل التي نجد فيها صفات ومقارنات باعتبار أن التعيين تابع للصفة والمقارنة في التقديم، والتعيين³³ شكل من أشكال الوصف الذي يتمثل في إعطاء اسم جديد للشيء³⁴. ومن أمثلة التعيين الحجاجي وصف الله بصفات العباد ووصف العباد بصفات الله. فيقول: "ثم نظر أيضا إلى نفسه

فرأى فيها صفات كمالية من سمع وبصر وكلام فاضطره شهود الأولوية إلى أن وصف خالقه ومبدعه بها³⁵ بحيث أسقط في هذه المقطوعة صفات العبد على الله عزوجل، وفي قوله: "فلما نظر فيها ظهر له من العجائب والغرائب ما اضطره إلى الاعتراف بصانع مبدع وخالق مخترع متصف بحياة وعلم وقدرة وإرادة حسبما شاهد نفسه إذا فعل فعلا محكما متقنا"³⁶. وأسقط هنا صفات الله تعالى على العبد، أي أنه أعطى الله سبحانه وتعالى أسماء جديدة لم تكن منسوبة إليه في الأصل، إذ هي صفات خاصة بالإنسان (المخلوق)، كما أعطى أسماء للإنسان لم يكن قد عرف بها من قبل، وهي صفات خاصة بالله (الخالق).

ومن الحجج التأطيرية التي تتوفر في الرسائل الرابطة (Association)، وهي عبارة عن خلق تركيب جديد لمجموعة عناصر موجودة سابقا في الواقع بطريقة تكون فيها هذه العناصر مجتمعة ومتقاربة بصفة مستحدثة، كما يقول: "واتزلاويك" (watzlawick): "جمع الأشياء (في المعنى العام) خاص بالعنصر الأكثر عمقا والأكثر ضرورة لإدراكنا العقلي وفهمنا للواقع"³⁷. وعليه فإن الرابطة هي تتابع مجموعة من العناصر تشكل في اتحادها مفهوما خاصا لقضية معينة. فقضية الصفات التي ذكرناها سابقا فيها نوع من الغموض واللبس إذا ما أخذنا كل صفة على حدة لكن هذا اللبس سيزول إذا ربطنا هذه الصفات بالموضوع الرئيسي التي صيغت لأجله، بحيث يقول ابن عباد: "ولنقدم هاهنا مقدمة: وهي أن الباري تعالى خلق الإنسان وجعله مشتملا على صفات الكمال والنقصان، وكلها ناقصة بالإضافة إليه سبحانه ثم هياه لمعرفته ومعرفة صفاته وأسمائه بما ركّب فيه من العقل الذي به يدرك العلوم النظرية وأرشدته إلى النظر في الآيات والاعتبار بالمصنوعات ..."³⁸. إذ في هذه

المقطوعة إطار عام وأطر فرعية بحيث لتوضيح الإطار العام - الذي هو قطع الخوف من المسألة التي جاءت في كتاب البيان الشافي لأبي طالب- وظف ابن عباد أطراً فرعية ترتبط بالإطار العام، وهي مجموعة من العلاقات تجعلها تنتمي إليه. ونجد الربط في كل الرسائل سواء من حيث الموضوع أو من حيث البناء.

وكما أمكننا الربط من فهم الظاهرة الموجودة في الرسالة فإن للانفصال (Dissociation) كذلك دوراً في تأطيرها وتعيينها، بحيث انطلاقاً من مفهوم يحيل عادة على عالم واحد يمكننا "عزل" وضم عالمين مختلفين إلى نفس هذا العالم³⁹ ولتوضيح ظاهرة الانفصال يمكننا أن نستعين بالثنائيات الضدية التي تشكل بانفصالها القائم على التضاد معنى يساعد على فهم الظاهرة وتأطيرها، فقول ابن عباد "الحادث والقديم" و"المخلوق والخالق"، "اعتقاد نفي"، دليل على أن للانفصال دوراً في تأطير الرسالة، وتوضيح المسألة التي وقع فيها الخوف وهذا الدور يكمن في تحديد مكانة الله ومكانة العبد، ويحدد كذلك قصد أبي طالب من إعطاء الله صفات العبد، وإعطاء العبد صفات الله، وذلك من خلال انطلاقه من الخاص لاستنتاج العام، وفق معطيات لا تتغير (أي بدون الخروج عن دائرة المفاهيم الخاصة بهذا الخاص، وهي مفاهيم يجب على العام أيضاً أن يحتويها). ففي قول ابن عباد الآتي: "فلما نظر فيها ظهر له... ما اضطره إلى الاعتراف بصانع مبدع... حسبما شاهد نفسه إذا فعل فعلاً محكماً متقناً ثم نظر أيضاً إلى نفسه فرأى فيها صفات كمالية... إلى أن وصف خالقه ومبدعه بها" نلاحظ أنه انطلق من أمور خاصة ليصل إلى أمور عامة. فأطلق صفات خاصة بالله سبحانه وتعالى على العموم من البشر.

ومن آليات التأطير أيضا الحجج الشبيهة بالمنطق (Quasi logique) التي تستعمل استدلالا قريبا من الاستدلال العلمي، وتستعمل كذلك آليات لغوية تفيد التلميح وتستوجب العقل كاللحن، المخالفة والموافقة، ومن الحجج شبه المنطقية التي تستعمل الاستدلال القريب من الاستدلال العلمي التي يصعب تمييزها عن البرهان ما جاء على شكل احتمال، حيث يقول "بريتون": "إن الاستدلال المنطقي صالح لكل الحالات التي تكون فيها الحجج شبه المنطقية ذات طبيعة اقصائية، بحيث هي احتمال، إذ تفترض مزايا التعدية والمطابقة ومن الانقسام "أعداء أعدائي أصدقائي"⁴⁰. ولقد وظف ابن عباد هذا النوع من الحجج عندما استعان بالآية القرآنية التالية: "إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا"⁴¹. إذ يمكن أن نصوغ فحوى هذه الآية في شكل عملية استدلالية كالاتي:

الشيطان لكم عدو $\Leftarrow (-)$

فاتخذوه عدو $\Leftarrow (-)$

والشيطان في حقيقة الأمر هو عدو الله لأنه خالف أوامره، وإذا عداه الإنسان فإنه يعقد حبا وولاء لله سبحانه وتعالى، وعليه فإن الله يأمر عباده بأن يتخذوا عدوه عدوهم. لتصبح المعادلة كالتالي:

الشيطان $\Leftarrow$ عدو الله

الشيطان $\Leftarrow$ عدو عباد الله.

عباد الله $\Leftarrow$ أحباب الله

وعليه فإن عدو عدو الله $\Leftarrow$ هو حبيب الله

إن لهذه العملية المنطقية دورا حجاجيا هاما، يتمثل في كيفية إقناع المتلقي، وهي الطريقة العقلانية التي تجعله يسلم بالنتيجة ويعتبرها نهائية وحتمية، وهذه النتيجة

تهدف إلى الإقناع من ناحيتين، إذ استعمل ابن عباد الوجه المنطقي فيها، واستعان بمكانة قائلها الذي لا يمكن أن يكذب أو يشكك في أقواله.

ومن الآليات اللغوية شبه المنطقية مفهوم **المخالفة**: وهو "دلالة اللفظ على ثبوت حكم للمسكوت عنه، مخالف لما دل عليه المنطوق به"⁴² إذ نستنتج من قول ابن عباد: "ثم اختص الحق تعالى بعض عباد به بأن ألح لهم من نوره ما لم يحتاجوا معه إلى تأمل دليل وسلوكوا به من معرفته أوضح سبيل، فشاهدوا من عجائب الصفات ومعاني أسامي الذات ما لم يشاهده الأولون وأدركوا من جمال الحضرة الربوبية والأنوار القدسية ما عجز عن إدراكه المستدلون..."⁴³. قصد يخالف ما جاء في هذا الخطاب وهو عدم وصول الناس (أصحاب المسألة التي جاءت في كتاب قوت القلوب) إلى المستوى الذي يمكنهم من فهمها. ليستغني بذلك عن إنتاج خطابين في آن واحد. ويستعين ابن عباد بأسلوب المخالفة في كل رسائله ومع كل مخاطبيه.

كما نجد مفهوما آخر وهو **مفهوم الموافقة** الذي هو دلالة اللفظ على ثبوت حكم المنطوق به للمسكوت عنه، وموافقه له نفيًا أو إثباتًا لاشتراكهما في معنى، يدركه كل عارف باللغة، دون الحاجة إلى بحث أو اجتهاد. وسمي مفهوم موافقة، لأن المسكوت عنه موافق للمنطوق به في الحكم، ويسميه بعض الأصوليين مفهوم الخطاب...أو دلالة النص"⁴⁴. إذ تفهم دلالاته من المعنى لا من اللفظ، ويمكن أن نستنتج مفهوم الموافقة من المثال الآتي، وذلك ببحثنا عن دلالة الدلالة فيه:

- **"والظاهر أن شيخ التربية في هذه الأزمنة متعذر، ووجوده أعز من الكبريت الأحمر"**.⁴⁵ إذ لم يقل ابن عباد "وجوده نادر" بل استعان بلفظ يدل معناه على هذه الندرة وهو في قوله "أعز من الكبريت الأحمر".

إن توفر الآليات شبه المنطقية في الرسائل تدل على أن لابن عباد فكريا رياضيا، يسير من خلاله آراءه وحججه ليحصل في النهاية عرضه المتمثل في جعل المتلقي يقبلها ويقتنع بها بسهولة.

ب - التماثل:

التماثل هو "الإتيان بعامل خارجي أو وضعية خارجية لا علاقة لها بمحتوى النص للتأكيد على ظاهرة موجودة في النص"⁴⁶، وما الحكايات والأقوال والأمثلة التي يسردها ابن عباد في الرسائل إلا ظواهر خارجة عن النص، غرضه من الإتيان بها هو التأثير والإقناع، ومنه تظهر الوظيفة الإفهامية التي تحدث عنها (جاكوبسون) وهي عند (جيرار جينيت): "محاولة إدماج القارئ في عالم الحكاية والتأثير فيه"⁴⁷. ومن ثمة فهو يحقق وظيفة أخرى أساسية وهي الوظيفة التواصلية.

ولحجج التماثل دور في إحداث التفاعل بين المخاطب والمخاطب في النص الصوفي، إذا بمجرد أن يكون المخاطب "مريداً" ويملك رغبة في أن يصبح متصوفاً عارفاً واصلاً يجعله يصدق أكثر ما يحكي عن السلف وبالتالي الاقتناع بوجهة نظر المخاطب. وهذا الحكي الذي فيه "ترابط بين الأشياء والأشخاص والأحداث والوقائع والكلمات... جعل المماثلة تحتل حيزاً كبيراً في الدراسات الفلسفية والتنظيرية واللسانية المعاصرة"⁴⁸.

ج - الاستعارة:

يمكن للاستعارة أن تتحول إلى حجة عندما تعمل على الإقناع⁴⁹ إذ تتعدى الزخرفة فتصبح أداة إقناعية حقيقية تحول ملفوظاً مجرداً إلى سجل مجازي مقبول لدى القارئ.

ولما كانت الاستعارة أداة بلاغية، بليغة الحجة، لم تخلو رسائل ابن عباد الرندي منها. فشكلت كل مسألة في كل رسالة استعارة إطار، أو ما يسمى بالاستعارة المفهومية أو الاستعارة النصية، حيث تكون المسألة بمثابة فكرة عامة للنص يقيم على أساسها ابن عباد مجموعة من الأفكار الجزئية يقدمها تدريجياً في شكل استعارات جزئية تبني وتثبت الاستعارة النصية الكبرى ففي الرسالة الأولى "كتاب فيه جواب سؤال أورده بعض الناس على مسألة في كتاب قوت القلوب في باب الخوف منه، وفيه زيادة مفيدة يحتاج إليها المرید في مخالطة بعض الناس". هناك استعارة حجاجية كبرى تتمثل في إرادة ابن عباد الرندي في إقناع محمد بن أدبية برأيه في المسألة حيث لا يقدم الجواب دفعة واحدة، بل يلجأ إلى الاستعارات الجزئية التي تخدم النص ككل ومنها:

- "استرقتنا العادات".
- "اغتالتنا الأعداء والأهواء".
- "وقوفهم مع عقولهم وجمودهم على آرائهم".
- "ثم اختص الحق تعالى بعض عباده بأن ألح لهم من نوره ما لم يحتاجوا معه إلى تأمل دليل وسلکوا به من معرفته أوضح سبيل".
- "لا يرفع حجابہ إلا لقلب منیب زکی".
- ليلي من وجهك شمس الضحى وإنما السدفة في الجو
- والناس في الظلمة من ليلهم ونحن من وجهك في الضو

ف نجد من هذه الاستعارات المكنية والصريحة والتمثيلية والمرشحة، ولكل نوع منها قوته الحجاجية. وتعتبر الاستعارة المرشحة من أبلغ أنواع الاستعارة، لأن مادة

الترشيح تفيد معنى القوة⁵⁰ وتجسيم المعنوي يزيد الاستعارة بلاغة وحجة، إذ تقريب اللامحسوس من المحسوس يسهل عملية الإدراك والفهم، وهو النوع الذي يغلب أكثر في رسائل ابن عباد، وعلى هذا النمط تسير كل الرسائل، إذ نجد استعارة رئيسية تشكل الإطار العام للرسالة، وفي كل مرة يسعى ابن عباد إلى إظهار فكرته التي تمثل رأيه في المسألة من خلال الاستعارات الجزئية التي ترد تباعا في نص الرسالة، ما يحيلنا على مسألة الإنسجام بين الرسائل، إذ تأطير الاستعارة وتقسيمها إلى استعارة أم واستعارات فرعية في كل الرسائل يدل على التنظيم المحكم، والترابط المنطقي الذي يترجم ترابط الأفكار وانسجامها.

ولقد استعمل ابن عباد هذه الاستعارات كوسيلة لتأكيد أفكاره وتدعيمها عوض أن تكون هدفا في حد ذاتها. لأنّ غرضه من الإتيان بها، هو وصول الرسالة بالقصد الذي يريده وذلك بعقده علاقة بين الملفوظ والقصد ويسمي "غرايس" (Greis) ذلك بالمعنى غير الطبيعي ويسميه "سيرل" (Searl) بالمعنى غير الحرفي، وبمعنى ملفوظ المتكلم⁵¹ ولاستعمال اللفظ في المعنى دور أساسي في عملية الدلالة المفهومة التي تفهم من التعبيرات، وذلك بمراعاة دلالة الحال والسياق، بحيث لا يفرض مساق الرسالة على المتلقي إلا تأويلا دلاليا واحدا، هو التأويل الذي يقصده ابن عباد.

2-2- التداولية التخاطبية ودورها الحجاجي في الرسائل:

أ- فعل إنتاج الرسالة اللغوية:

تشمل كل رسالة من رسائل ابن عباد الرندي فونيمات، هذه الفونيمات تتركب بطريقة تشكل في الأخير دلالة، ففي الفونيمات يتحقق فعل التلفظ، وذلك من خلال سلسلة الأصوات التي تنتمي إلى اللغة العربية، وأما ترابطها فيؤدي إلى تأليف

المفردات وفق قواعد النحو والصرف العربيين، اللذان يسهمان بشكل مباشر في إنشاء الدلالة التي لا تفهم إلا ضمن سياق يحدد القصد والتوجيه، بحيث يستعين ابن عباد في رسائله بأصوات اللغة العربية، وبقواعدها التي تسهم في إنشاء الدلالة وفق سياق محدد وهو السياق الإطار، الذي هو التصوف والسياق الفرعي وهو سياق موضوع الرسالة. يعمل ابن عباد على أن يكون لكل فاعل يذكره فعله المتصرف، بحيث يسند إليه الفعل الذي يذكره كقوله: "وقد قال الجنيد: لو علمت أن الله تعالى علما تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه ولقصده"⁵². فالفعل "علمت" فعل متصرف، أسنده ابن عباد إلى فاعله وهو الجنيد، بحيث بفضل هذا الفعل التلغفي أنشأ ابن عباد جملة خبرية صادقة (قائلها معرف)، وسليمة من حيث تركيبها، إذ هي (مسند ومسند إليه).

ويشير فعل الرسالة اللغوي، فعل إلى تحقيق قصد معين وهذا القصد يتمثل في محاولة تأثير ابن عباد في مخاطبيه، لكن هذا الفعل يتوقف بمجرد تلفظه، لأنه يتم على مستوى القول فقط، ولا تظهر قوته إلا عندما ينجز، فإذا كان فعل القول مشتملا على أصوات لغة معينة خاضعة لقواعدها، حاملا لدلالة ما، فإن الفعل المتضمن في القول يشتمل على هذه كلها وعلى أمر زائد وهو القوة (force). ويعرفه أوستين بقوله: "هو الفعل المنجز بقولنا لشيء ما"⁵³.

ب - فعل الرسالة الانجازي (فعل الإقناع):

ويطلق عليه الفعل المتضمن في القول (Acte illocutoire) ويعتبره أوستين

الفعل الكلامي الحقيقي ويمكن أن نستنتجه كما يلي:

يتهيأ ابن عباد الرندي في بداية كل رسائله بتحديد نوع الأفعال التي سيقوم بإصدارها وذلك بما يتلاءم مع المرسل إليه ومع الموضوع، إذ يصدر في الرسائل التي بعث بها إلى محمد بن أدبية أفعالا توحى بأن الرسالة أخوية وذلك لعدم لجوءه إلى التكلف والتصنع في كتابتها مما يدل على أنه أعلى منه مرتبة، إلا ما جاء منها بصيغة الأمر الطلبية بقوله "فاعلم" في الرسالة الثالثة و"اعلم" في الرسالة الرابعة و"فاعلموا" في الرسالة الخامسة. أما في الرسائل التي بعث بها إلى يحيى السراج، فلقد استعمل الأمر والوصية وهما إعلان غالبا ما يصدران ممن هو أكبر شأنًا أو سنا، واستعمل ابن عباد الأمر في الرسالة الثامنة "اعلموا" وفي الرسالة العاشرة "وليكن لك" وفي الرسالة الثالثة عشر "فامضوا"، "اعلموا". والأمر في لغة العرب عبارة عن استعمالها. [وهي اللام الجازمة، وصيغ مخصوصة، وعدة أسماء]، أعني استعمال نحو: لينزل، وانزل، وصه، على سبيل الاستعلاء... والصيغة الأصلية للأمر هي فعل الأمر (افعل)⁵⁴. ويقوم الأمر في هذه الرسائل على استعمال الحق أو السلطة.

استعمل ابن عباد الرندي أفعال كلام، هي في جوهرها عبارة عن إطلاق أحكام، وتسمى هذه الأفعال بـ "الحكميات"، وهي أحكام يطلقها ابن عباد على واقع الموضوع أو الشخص الذي يتناوله الموضوع أو في قيمة الموضوع. ويستعين في ذلك على ألفاظ حكمية كـ: وصف، نبّه، ذكرت، قبض، أصبح، أقدم، أخذ، أوجب، أعلى... الخ. وهي أفعال تتواتر في جميع الرسائل ومع كل المتخاطبين..

ويتحقق صدق ابن عباد من خلال أفعال التوجيه التي يوظفها في معظم رسائله ففي كل مرة يحمل المريد وينصحه على القيام بفعل ما ويلح عليه في أن ينجزه، ونلمس ذلك من خلال اشتغال هذه الأفعال على: النهي، الأمر، الطلب، النصح والاستفهام.

- النهي: "وهو طلب الكف عن الشيء، وله صيغة واحدة، هي المضارع المقرون بلا الناهية⁵⁵ كقوله: "لا تأخذوا في هذا العلم مع من هو متصف بإحدى ثلاث صفات: كبر أو بدعة، أو تقليد"⁵⁶.

- الأمر: ما جاء في صيغة المضارع مقترنا بلام الأمر، كقوله: "لتعين إجابتم علي"⁵⁷

- أما النصح: فهو في قوله: "وأوصيكم بوصية لا يعرف قدرها إلا من عقل وجرب ولا يستهين بها إلا من غفل فحجب"⁵⁸.

- والاستفهام: كقوله: "كيف تستدلون عليه بما هو مفتقر في وجوده إليه؟ متى غاب حتى يحتاج إلى دليل عليه ومتى فقد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟ أليكون لغيره من الظهور ما ليس له حتى يكون هو المظهر له؟ كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء أم كيف يتوصل إليه بمتوسل بعيد وهو أقرب من حبل الوريد؟".

يعد استعمال الأسئلة الاستفهامية من الآليات اللغوية التوجيهية، بوصفها توجه المرسل إليه إلى خيار واحد وهو ضرورة الإجابة عليها، ومن ثمة فإن المرسل يستعملها للسيطرة على مجريات الأحداث، بل وللسيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسيير الخطاب تجاه ما يريد المرسل، لا حسب ما يريده الآخرون، وتعد الأسئلة خصوصاً الأسئلة

المغلقة من أهم الأدوات اللغوية لإستراتيجية التوجيه⁵⁹. ومن ثمة فإن الرسائل كلها موجهة باعتبار أن الرسائل في الأصل هي أجوبة عن أسئلة قد طرحت، وبما أن الغاية الكلامية لأفعال التوجيه هي توجيه المرسل إليه فإنها تعتبر مغايرة للوعديات أو أفعال الوعد، إذ الغاية منها هو إلزام المتكلم بتبني سلوك أو القيام بفعل ما.

نستنتج مما سبق أن للأفعال الإنجازية دورا أساسيا في تفعيل الخطاب الصوفي، بحيث أن استعمال قوة الفعل في التلفظ لها دورها في جعل المخاطب يتقبل ما يقوله ابن عباد دون رفض أو حتى اعتراض، وعليه فإن الفعل الإنجازي هو سلوك صوفي بحت حيث أن للمتصوف رأي يقوم بطرحه على المريد وما على هذا إلا أن يتقبله ويرضى به. وعليه فهو يقيم علاقة بين المرسل والمرسل إليه تتجلى في التأثير إذ يصحب تأثير المرسل إليه قيامه بنشاطات تبرز سلوكا معينا.

ج- السلوك الصوفي:

ويظهر في الرسائل من خلال الأفعال الناتجة عن القول التي يسعى بها ابن عباد إلى تحقيق أثر في نفسية مخاطبيه وهذا الأثر يتضح من خلال ردة الفعل التي تتمثل في النتيجة، ويمكن استنتاج هذا الأثر في الرسائل الصغرى من خلال "الدعاء" إذ للدعاء أثر مخصوص في النفس البشرية، خاصة عند المسلمين.

وبما أن الدعاء هو أكثر الأفعال الكلامية تأثيرا، "لما يحمله من قوة كلامية (force illocutoire) تريخ المتلفظ به"⁶⁰. فإن ابن عباد يستعين به مباشرة أو بجزئياته كالطلب بالأمر والنداء والشرط. وذلك في كل رسائله.

كما يتحقق السلوك الصوفي من خلال مبدأ الصدق الذي يعتبر من المقومات الأساسية للمعرفة الصوفية.

نستنتج مما سبق بأن للبلاغة دوراً رئيسياً في تفعيل الحجة في الخطاب الصوفي، وذلك راجع للدور السلوكي الذي تلعبه اللغة من خلالها، بحيث يؤدي استخدامها إلى تدخل عناصر تسهم بشكل مباشر في إحداث مدلولات بواسطة أدوات بلاغية وتداولية، التي تؤدي إلى الأثر المرجو من الخطاب الصوفي، الذي لا ينتج إلا بمروره بالمراحل التالية:

- إنتاج الرسالة.

- السعي إلى تحقيق فعل الإقناع.

- تحقيق المتلقي السلوك الصوفي المرجو من الإقناع.

3- التنظيم الحجاجي في نصوص الرسائل:

نتوصل إلى بنية الحجاج في الرسائل من خلال البناء العام لها، أي من خلال: المقدمة والعرض والخاتمة، وفق البنية الوظيفية لكل عنصر لنصل في النهاية إلى تحديد بنية كبرى إجمالية ومن ثمة بنية كبرى حجاجية.

يتم في البداية تحديد الموضوع، ثم طريقة بناء الرسالة، وبعدها تحديد الوحدات اللسانية، إذ تصنف الوحدات اللسانية في النص بتحديد الواصلات وذلك بتحليل البنية الوظيفية لكل من المقدمة، العرض والخاتمة، وفق وحدات خطابية إما نوعية تضم فعل أو تدخل وإما وظيفية موجهة أو تابعة. والفرق بين الوحدات الخطابية الموجهة والتابعة محددة في الوظائف الحجاجية للأفعال والتدخلات، إذ تكون كل حجة تابعة لنتيجتها التي هي نتيجة موجهة.

وللواصلات التداولية وظائف متعددة، فـ "فإن"، "لكن"، "إن"، "أخيراً" تترجم الأفعال الموجهة أو التدخلات الموجهة، في حين أنّ الواصلات الشارحة (التفسيرية) مثل "أي" والمبرهنة والإحصائية تترجم التتابع.

تلخص البنية الإجمالية؛ البنى الوظيفية الثلاثة، أي بنية المقدمة وبنية العرض وبنية الخاتمة، بحيث تجعل الرسالة ذات بنية واحدة لا تقبل إلا تأويلاً واحداً، يتجلى شيئاً فشيئاً من خلال الروابط الحجاجية الموجودة في بداية كل وحدة خطابية، ما يجعلنا نستنتج أن نصوص الرسائل تحتوي على نوع من الحركة الحجاجية التي نمثلها كالآتي:

(حجة)، (عكس الحجة)، (خاتمة).

فتصبح لدينا بذلك بنية حجاجية كبرى تلخص أهم الأجزاء الحجاجية في الرسالة، وذلك بإعطاء هذه الأجزاء صفة الإيجاب بواسطة الرمز (+) وصفة السلب

بواسطة الرمز (-)، كما يلي:

ت	تا	+	(ب)
ت	م	-	(ب)
ت	م	-	(ج)

بحيث نخلص في النهاية إلى أنّ في العرض والخاتمة حجج، وأنّ حجج العرض فيها الموجب وفيها السالب وذلك بحسب نوعية التتبعات، فإذا كان التتبع تابع تكون الحجج موجبة وإذا كان التتبع موجه فإن الحجج تكون سالبة بطبيعة الحال.

وما استنتجناه من خلال البنى الوظيفية لكل من المقدمة، العرض والخاتمة في الرسائل، أنّ الفاعل الأساسي في إظهار البنية الحجاجية فيها هو وجود الأفعال والتتبعات الموجهة التي تتجدد بواسطة الروابط الحجاجية، بحيث لكل رابط وظيفته الأساسية في الخطاب.

والدور الحجاجي لهذه الأدوات في الرسائل الصغرى يختلف عنه في باقي الخطابات الأدبية خاصة منها تلك التي لا تحتوي على حوار ضمني أو نقاش حول

مسألة معينة، وقد يعود ذلك إلى خصوصية النص الصوفي بصفة عامة، حيث "أنّ الرجل الصوفي حين يؤلف في أدب النفس يجمع بين الصورة القولية والصورة العملية، فهو شعلة من اليقظة الروحية فيما يعمل وفيما يقول"⁶¹. وعليه فإن الخطاب الصوفي هو خطاب الواقع والأخلاق وجودة المعنى وقوة السبك ومتانة الديباجة، خاصة أنه خطاب أدبي وثيق الصلة بالدين، إذ أنه يحاكي أسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ويستمد قوته الحجاجية منهما، وأي الأقوال أعظم وأحق بالإتباع غيرهما؟

- 1- محمد ابن عباد الرندي: صوفي أندلسي عظيم، ولد في مدينة رندة قرب قرطبة في جنوب اسبانيا سنة 733 هـ / 1331م.
- 2- بولس نويا اليسوعي: عضو المجلس الوطني للأبحاث العلمية في باريس، حقق ونشر الرسائل الصغرى لابن عباد الرندي.
- 3 - ينظر: ليونيل بلينجر، الآليات الحجاجية للتواصل، ترجمة عبد الرقيق بوركلي، مجلة علامات، العدد 21، ص 34.
- 4 - Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, 3eme édition, la découverte, Paris, 2003, P3.
- 5 - Ibid, P3
- 6 - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، ص 254.
- 7 - ابن عباد، الرسائل الصغرى، تحقيق ونشر الأب بولس نويا اليسوعي، دار المشرق بيروت، د.ت، ص 133.
- 8 - Voir: Alain Boissinot, les textes argumentatif, collection didactiques: Bertrand la Coste CRDP de Toulouse, P59.
- 9 - اسم أطلقة "بنفينيست Benveniste" على العلاقة بين زمن التلفظ وزمن الملفوظ والعلاقة بين الذات وموضوع الملفوظ والعلاقات السوسولوجية والتاريخية بين المتكلمين.
- 10 - Jean Jacques Robrieux, Rhétorique et argumentation édition Nathan, 2eme édition, Paris, 2000, P 189.
- 11 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، لبنان، 2004، ص 230.
- 12 - يُنظر، طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000، ص 47.
- 13 - ابن عباد، ص 110.
- 14 - نفسه، ص 109.
- 15 - voir ;Chaïm Perlman et Lucie olbrechts – tyteca, traité de l'argumentation, édition de l'université de Bruxelles, 5ème éditions, 2000, P412.

16 - إذ يري بيرلمان وتيتيكاه أنه يمكن للحجة السلطوية أن تكون صفة إنسانية تمس الإنسان في شخصه مثل: الحكماء، الفلاسفة، باباوات الكنيسة، الرسل، ويمكن أن تكون لا شخصية فتخص المذهب، الفيزياء، الدين، التوراة، يُنظر المرجع السابق، ص 413.

17 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع السابق ص 229.

18 - يُنظر: نفسه، ص 239.

19 - وهي الترجمة لمصطلح Embrayeurs ويقابل أيضا مفهوم "المبهم" عند علماء الأصول. إذ يتضمن الواصل إشارة موجهة نحو البحث عن المفترض فيما تقدم أو ما سيلحق، كما شأن الإحالة والاستبدال والحذف وللوصل علاقة تتمثل في تحديد الطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منتظم، إذا النص عبارة عن جمل أو متتاليات متعاقبة خطيا بواسطة عناصر رابطة متنوعة كالربط بـ "و" و"أو" للذان ينتجان ضمن علاقات أخرى مثل: التماثل الدلالي المتحقق في الربط بين الجمل بواسطة تعيير من نوع: بالمثل ..، وعلاقة الشرح وعلاقة التمثيل وعلاقات خاصة كالنتيجة والسبب والشرط..." أنظر محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، ص، ص 22.23.

20 - Meingueneau, les mots clefs de l'analyse du discours, PP 33.34

21 - Les arguments du communanté (Opinion commune, valeurs, lieux) voir, Philippe breton, Op.cit, P69.

22 - تصنف الإشارات في اللغة العربية حسب معايير كثيرة، مثل العدد، الجنس، أو بعد المرجع عن المرسل أو قربه، حيث يكون تصنيف ضمائر الرفع المنفصلة على النحو التالي: "أعلم أن المضمّر المرفوع، إذ حدث عن نفسه فإن علامته أنا، وإن حدث عن نفسه وعن آخر قال: نحن، وإن حدث عن نفسه وعن آخرين قال: نحن (...). وأما المضمّر المخاطب فعلامته إن كان واحدا: أنت وإن خاطبت اثنين فعلامتهما أنتما، وإن خاطبت جمعا فعلامته: أنتم. أنظر عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع السابق، ص 286.

23 - C.K Orechioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, 2eme édition Armand colin, Paris, P47.

24 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، نفسه، ص 743.

25 - ابن عباد، ص 27.

26 - محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال للنشر، ط1، 1990، ص 108.

27 - لا مفر للباحث في التحديدات والتعريفات من أن يرجع إلى واضع أسسها، وهو أرسطو فقد قال في التحديد: "هو جوهر الطبيعة أو الطبيعة الجوهرية" ومعنى هذا أن التحديد هو الوسيلة الأساسية لإدراك جواهر الأشياء مهما كانت، واعتبارا لهذا الدور الإدراكي والمعرفي فإن أرسطو قد ضبط مكونات التحديد ومنهجيته، ولذلك فإنه صاغ نظريته في الألفاظ (الكليات) التي ذكر أربعاً منها، وهي الجنس والخاصة والتحديد والعرض. ينظر: محمد مفتاح، المرجع السابق، ص 12.

28- Philippe Breton, Ibid. p. 81

29 - ابن عباد الرندي، نفسه، ص 19.

30 - Philippe Breton, op cit, p. 84

31 - ابن عباد نفسه، ص، ص. 32-33

32 - ابن عباد، ص 20.

33 - يوجد مفهوما آخر للتعين وهو المفهوم الإشاري في إطار نظرية الإشارة، ويهدف هذا النوع من التعين إلى العناية بسياق القولة، ويتضمن تعيين الشخص تعيين المكان وتعيين الزمان، انظر محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلالياً، في ضوء مفهوم الدلالة المركزية "دراسة حول المعنى وظلال المعنى"، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا 1993، ص 88.

34 - Philippe Breton. Op cit. p 85

35 - ابن عباد، ص 21.

36 - نفسه الصفحة نفسها.

37 - Philippe Breton. OP CIT. P 89-90.

38 - ابن عباد، ص 21.

39- Philippe Breton. Op. cit. p 92 .

40 - ibid., p 95.

41 - ابن عباد، ص 111.

42 - عبد الهادي بن ظافر، المرجع السابق، ص 426.

43 - ابن عباد، نفسه، ص 21.

44 - عبد الهادي بن ظافر، المرجع السابق، ص - ص، 427 - 428.

45 - نفسه، ص 132.

46- Ibid. p46

47 - رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، عربي - إنجليزي - فرنسي، دار الحكمة، 2000م، ص 79.

48 - ينظر: محمد مفتاح، المرجع السابق، ص 54

- 50 - يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية، مقدمات عامة، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1999، ص 113.
- 51 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع السابق، ص 380.
- 52 - ابن عباد، ص 28.
- 53- J.L Austin, quand dire c'est faire, how to do thinks with words, Gilles Lane, éd. Du seuil, Paris, 1970, p 109.
- 54 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع نفسه، ص 341.
- 55 - يوسف أبو العدوس، المرجع نفسه، ص 61.
- 56 - ابن عباد الرندي، ص 27.
- 57 - نفسه، ص 20.
- 58 - ابن عباد، ص 27.
- 59 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع نفسه، ص 352.
- 60 - أمنة بلعلی، الحركية التواصلية في الخطاب الصوفي، من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 94.
- 61 - زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج1، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ت، ص 29.